﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: 10 - 15]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا فصَّلت الآياتُ حال النّاس يوم القيامة بذكر حال أهل السّعادة واليُمن، ناسب ذلك ذِكرُ حال الفريق الثّاني مِن أهل الشَّقاوة والشُّؤم تكميلًا للتَّقسيم.

تكميلُ التَّقسيم بـذِكـر أهـلِ الـشَّـمـال بَـعـدَ ذِكر أهل اليمين

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثُبُورًا﴾: (ثبر) أصلٌ يرجعُ إلى الهلاك والفساد؛ ورجلٌ مثبورٌ: هالك. وفي كتاب الله تعالى: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: 13]، وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: 102]، قال ابن عبّاس ﷺ: (يعني ناقص العقل)، ونُقصانُ العَقلِ أعظمُ هلاكٍ.[1] والمعنى في الآية أنَّ مَن أوتي كتابَه مِن غير يمينِه عَلِم أنَّه مِن أهل النّار فيقول: "وا ثبوراه!". وقد يكون الثّبور مُشتقًّا من المُثابَرة على شيءٍ، وهي المواظَبة عليه، فسُمّي هلاكُ الآخرة ثبورًا؛ لأنّه لازمٌ لا يزول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: 65][2].

2) ﴿وَيَصْلَىٰ﴾: مضارع (صلي)، وأصله النّارُ وما أشبهَها مِن يُقال: صَليت العودُ بالنّار. واصطليت بالنّار. والصِّلاء: ما يُصطَلى به وما يُذكى به النّارُ ويوقَدُ. وصَلَيْتُ اللّحم، أي: شويته، وأصلاه النّارَ وصلاه صَلْيًا أدخله إيّاها وأثواه فيها، والمعنى: نُدخِلُه فيها فيلاقي حَرَّها وشِدَّتَها[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، مفردات في غريب القرآن: (ثبر).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 99.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صلي - صلا- صلى).

3) ﴿ظَنَّ﴾: تدلّ مادَّةُ (ظنن) على معنيين متناقضين: يقينٌ وشَكٌّ[1]. وهو لِما يحصل عن أمارة، ومتى قويَت أدَّت إلى العِلم، ومتى ضعُفت جِدًّا لم يتجاوز حَدَّ التَّوَهُّم. والظَّنُّ في كثيرٍ مِن الأمور مذمومٌ[2]، وجمعه: ظُنون، وأظانين. والظِّنّة: التّهمة. ويقال: رجلٌ ظَنونٌ: مُتَّهمٌ في عقله، أو خَبَرِه؛ والظَّنُّ أيضًا إدراكُ الشَّيءِ مع ترجيحه[3]. وهو بهذا المعنى يُنافي اليقينَ، مِن حيثُ كَونُه ترجيحًا لأحَد طَرَفَي الحُكم على آخر مِن غير قطع، فيكون بمعنى الحُسبان، وهو معنى اللَّفظ في الآية[4].

4) ﴿يَحُورَ﴾: مِن معاني هذه المادَّة الرُّجوعُ[5]، وأن يدورَ الشَّيءُ دَورًا، والعَربُ تقول: "الباطل في حَوْر"، أي: رجوعٍ ونقصٍ، وكُلُّ نقصٍ ورجوعٍ حَوْرٌ. والحَوْر: مصدرُ حار حَوْرًا إذا رجع[6]. والحَور أيضًا التَّرَدُّدُ إمّا بالذّات، وإمّا بالفكر، وجاء في الحديث: «اللّهُم إنّي أعوذُ بكَ مِنَ الحَوْرِ بَعدَ الكَوْرِ»[7]. أي: مِن التَّردُّد في الأمر بعد المُضيِّ فيه، أو مِن نُقصانٍ وتردُّدٍ في الحال بعد الزّيادة فيها، أو مِنَ الرُّجوع إلى الكفر بعد الإيمان. ويُقال: حارَ بعد ما كارَ[8]. ومعنى الحور في الآية الرُّجوع[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أخبَرَ ربُّنا سبحانه أنّ مَن أُعطي صحيفةَ أعماله مِن وراء ظَهرِه،

حـــالُ أهـــلِ الشَّـقـاوة يـوم الـقـيـامـة خيبةٌ وندامةٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظنّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (ظنّ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ظنّ).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 242، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حور).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حور).
(7) أخرجه مسلم: (1343).
(8) الرّاغب، المفردات: (حور).
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 242، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100.

وهو الكافر باللّه تعالى، فسوف يدعو بالهلاك والثّبور، ويدخل النّار مُقاسيًا حَرَّها، فقد كان في أهله في الدُّنيا مسرورًا مغرورًا، لا يُفكِّر في العواقب، وظنَّ أن لن يَرجِعَ إلى خالِقه حيًّا للحساب، أو حَسِبَ أن لن يرجعَ إلى خلاف ما هو عليه في الدّنيا من السّرور والتّنعّم. لكنّ اللّه تعالى سيُعيدُه كما بدأه ويجازيه على أعماله، إنّ ربّه كان به بصيرًا عليمًا بحاله مِن يوم خَلَقه إلى أنْ بَعَثه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ وصلِ الآية بما قبلها بالواو:

عـطـفُ حـالِ الكـافرين على حـالِ المؤمنين يوم الدّين

عُطفَ قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ على ما قبلَه بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، فلمّا ذكَرَ النَّظمُ الكريم أهلَ السَّعادة مِن المؤمنين الّذين يُؤتَون كتابَهم باليمين، عَطَفَ عليهم ذِكرَ أهل الشّقاوة مِن الكافرين الّذين يُؤتَون كتابَهم وراء الظَّهر. وهذا مِن كمال الاتِّصال الَّذي يظهر به حالُ الفريقَين وبَونُ جزاء كلٍّ منهما بين النَّعيم المقيم، والعذاب الأليم.

دلالة تَكرار حرف التَّفصيل (أمّا):

حَـطُّ قَـدْرِ أصـحـاب الشّمال

تكرارُ حرف التَّفصيل (أمّا) في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ هو لتفصيل الإجمال الّذي في قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، فجميعُ النّاس راجعون إلى اللّه سبحانه، وكما أوتي المؤمنُ كتابَه باليمين، أوتي الكافِرُ كتابَه بالشِّمال، وبين مُنتهاهُما مراتبُ، وإنّما جاءت هذه الآيةُ على اعتبار تقسيم النّاس يومئذ بين أتقياء ومشركين[2]. وأفاد هذا الحرفُ أيضًا الحطَّ مِن قدر أصحاب الشّمال مِن الكافرين، بلحاظ دلالته على توكيد الكلام وتقويته[3].

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 589.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 222.
(3) بهاء الدّين السُّبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 130.

وجهُ التَّعبيرِ بالموصول الاسميِّ ﴿مَنْ﴾:

مِن صوَرِ قُبح المَنْظَرِ إيتاءُ الكتاب وراءَ الظَّهر

أوثرَ استعمال الموصول ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ والدّالِّ على العاقل المكلَّف؛ لكونه المحاسَبَ على أعماله والمُجازَى عليها. والنُّكتةُ في إيثار الاسم الموصول دون الاسم الظّاهر أنَّه يسمح بوصفه بجملة الصّلة، وقد أفاد النَّظمُ بهذه الصّلة وصفَ أهلِ الكُفرِ بإيتاء الكتاب وراءَ الظَّهر، إشارةً إلى كونِهم مِن أهلِ الشَّقاوة والخُسران.

سِرُّ إيثارِ لفظ الإيتاء دون الإعطاء:

إيتاء الكتاب للكافر وإن أبى هو ذلك

أوثر التّعبيرُ بفِعل الإيتاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ دون فِعلِ الإعطاء، لِكَونِه أقوى مِن الإعطاء، فالإيتاء لا مُطاوِعَ لفعله، فتقول: آتاني شيئًا فأخذتُه، بخلاف الإعطاء فإنَّ له مُطاوِعًا، فتقول: أعطاني شيئًا فعَطَوْتُه، والمتقرِّر أنَّ ما له مطاوعٌ مِن الأفعال أضعفُ في إثبات مفعولِه ممّا لا مطاوع له. كما أنّ الإيتاء يُستعمل للشّيء العظيم الشّأن، ولهذا ورد في إيتاء القرآن الكريم، والتّوراة، والمُلك، والرّحمة، بخلاف الإعطاء فلم يُستَعمل في ذلك[1].

ويجوز أن يدلّ لفظُ الإيتاء ههنا على التَّيسير والتَّسهيل، فهو بغاية السُّهولة وإن أبى الكافرُ ذلك[2]؛ وِفاقَ اعتراض الزّبيديِّ التَّوجيه السّابق؛ لأنّ القاعدة الَّتي ذُكرتْ في المطاوعة لا يكاد ينسحب حُكمُها على كُلِّ الأفعال، بل الَّذي يظهر خلافُه، فإنَّ الإعطاء أقوى مِن الإيتاء، ولذا خُصَّ في دفع الصدقاتِ الإيتاءُ؛ ليكون ذلك بسهولةٍ مِن غير تَطَلُّعٍ إلى ما يَدفَعُه، وتأمَّلْ سائرَ ما ورد في القرآن يُؤكِّد هذا المعنى، ومِن ذلك لفظ (الكوثر)؛

(1) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 343.

لمّا كان عظيمًا شأنُه غيرَ داخلٍ في حيطة قدرةٍ بَشَريَّةٍ استُعمل الإعطاءُ فيه[1].

والبناء للمفعول دليلُ يُسرِ الإتيان مِن الله تعالى، فضلًا عن الإهمال له والحطِّ مِن قدره. ثم إنّ الإيتاء باليمين كما كان تفضُّلًا مِن الله تعالى فإيتاؤه للكافر وراء ظهره واجبٌ جزاءً وِفاقًا لإنكاره وجحوده.

دلالة صوغ ﴿أُوتِيَ﴾ ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

يومُ القيامة آتٍ لا محالة

عُبِّر بالفعل ﴿أُوتِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ ماضيًا وليس مستقبلًا مع أنَّ السّياق هو في ذِكر الحساب المستقبليِّ يوم القيامة، للدِّلالة على التَّحقُّق، فهو آتٍ لا محالة، وهذا نظيرُ قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ [النحل: 1][2].

الله تعالى هو المتفرّدُ بمحاسبة عباده

وبُني الفعل ﴿أُوتِيَ﴾ للمفعول، ولم يُصرَّح بالفاعل للإيجاز، لوضوحه مِن السّياق، وهو الله سبحانه، فهو وحدَه مَن يحاسِب عبادَه ويُجازيهم عَن أعمالهم، مَعَ ما فيه مِن التَّركيز على الفعل في حَدِّ ذاتِه وهو الإيتاءُ، دون التَّعرُّض للفاعل، ومعلومٌ إذا كان الكلامُ منصبًّا إلى غَرَضٍ مِن الأغراض جُعِلَ سياقُه له وتوجُّهُه إليه، كَأنَّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[3].

سِرُّ إيثارِ لفظ (الكتاب) دون غيره:

أعمالُ بني آدم مكتوبةٌ محفوظةٌ مجموعةٌ لا يَنقُصُ منها شيء

أوثر التَّعبير بلفظ ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ دون غيره كالصّحيفة مثلًا؛ لِنُكتة لَمْحِ أصل الاشتقاق، وهو الكتابة؛ فقد سَخَّر الله لِكُلِّ عَبدٍ مَلَكين عن يمينه

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتى).
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 260.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.

وشماله يكتُبان كُلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ مِن أعماله، والحِكمةُ في الكتابة - مع أنَّ اللّه سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ - أنَّ المكلَّف إذا عَلِم أنَّ أعماله تُكتَب وتُعرَض على رؤوس الأشهاد كان أزجرَ عن المعاصي، وأنَّ العبدَ إذا وثِق بلُطفِ سَيِّده، واعتمد على عَفوِه وسَترِه لم يَحتشِم احتشامَه مِن خَدَمه المطّلعين عليه[1]. ثم إنّ الكتاب هنا يمثّل صحيفةَ أعمالِ الفرد الَّتي يُجمع فيها أعمالُه صغيرُها وكبيرُها، وهذا المعنى يتوافق مع أصل معنى الكتابة والكتاب وهو الجمع.

دلالةُ إضافة (الكتاب) إلى الضَّمير:

تحمُّلُ العبد تبعاتِ عَمَلِه صورةٌ لِعظيم عدلِ اللّه سبحانه

الإضافة في لَفظِ ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ على معنى اللّام، وهي مفيدةٌ للاختصاص، بمعنى أنَّ كُلَّ إنسانٍ يُؤتى صحيفةَ أعماله الخاصَّةَ به في يده اليُمنى أو اليُسرى بحسب أعماله، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ عبدٍ يتحمَّلُ تَبعةَ أعماله بنفْسه، ولا ينوبُ عنه أحدٌ في ذلك، فلا تزِرُ وازرةٌ وزر أخرى.

نُكتةُ ذِكرِ عبارة ﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ دون (بشماله):

ظهورُ جمالِ معاني الكتاب بالجمعِ بين آياته

قالَ رَبُّنا سبحانه في هذه الآية: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ وقال ﷻ في موضع أخر من القرآن: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾ [الحاقّة: 25]، فجمع العلماء بين الآيتين بوجهين مِن الجَمع:

أحدهما جمعُ الصِّفتين في كلِّ شخصٍ منهم، فيُحتَمل أن يُؤتى بشماله ووراءَ ظهره؛ لأنّه إذا حاول أخذَه بيمينه كالمؤمنين يُمنع مِن ذلك ويُؤتى مِن وراء ظهره بشماله.

وثانيها: أن يكون بعضُهم يُعطى بشماله، وبعضُهم مِن وراء ظهره[2].

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 377، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 260.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 99.

نكتة حذف (مِن):

الوراءُ هو المكانُ الَّـذي يُتحصّلُ فيه إيتاءُ الكتاب

لم يأت النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (مِن) الدّالِّ على ابتداء الغاية المَكانيَّة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾؛ فلم يقل: (من وراء ظهره). وذلك أنّ الوراء هنا ظرفٌ متعلِّقٌ بـ﴿أُوتِيَ﴾ مستعمَلٌ في المكان[1]. والمراد أنّ مكانَ إيتاءِ الكتاب ومحلَّ تَحصُّله هو وراءُ الظَّهر المقابلُ للأمام. فهو المكان الَّذي يُتحصّل فيه الإيتاءُ ويستقرُّ. وليس المراد أنَّ مكان ابتداء الإيتاء - الَّذي تُفيده (مِن) - يكون مِن وراء الظَّهر. ثُمَّ إنَّه لو قيل (من وراء ظهره)؛ لكان تعبيرًا موهمًا؛ لأنَّه يحتمل أن يكون مكانُ الإيتاء مِن خلف الظَّهر ولكنَّ الإيتاء يحصُلُ مِن الأمام، بأن يكون المؤتي في الخلف ويناوله الكتاب أمامه فهذا يصدق عليه أنه آتاه مِن وراء ظهره، وليس هذا مرادًا.

دلالةُ ذِكرِ (الظَّهر) دون (الوراء):

قُبح الهيئات في الآخرة مِن وجوه العقوبات

عُبِّر بلفظ (الظَّهرِ) في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ ولم يقل: (ورائه)، لأنَّ المُراد بذِكر الظَّهر تأكيدُ معنى (وراء) كقولهم (مِن وراء وراء)[2]. ففي الآخرة تُحوّلُ وجوهُهم الَّتي فيها العيونُ إلى ظهورهم وقَفاهم. كقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: 47][3].

والكافرُ يُؤتى كتابَه مِن ورائه؛ لأنّ يديه مغلولتان، أو تُغلُّ يدُه اليمنى إلى عُنُقه وتُجعل يدُه الشِّمالُ وراء ظهره، أو تُخلع يدُه اليسرى فتجعل مِن وراء ظهره، فيُؤتى كتابَه بشماله مِن وراء ظهره، أي: إنَّ يده تدخلُ مِن صدره حتَّى تخرجَ مِن وراء ظهره، فيأخذَ كتابَه بها؛

(1) الخلوتي، روح البيان: 10/ 378.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 626.
(3) الأصفهانيّ، تفسير الرّاغب: 3/ 1263.

لأنَّه إذا حاول أخذَه بيمينه كالمؤمنين يُمنَعُ مِن ذلك ويُؤتى مِن وراء ظهره بشماله. فالوراء هاهنا بمعنى مجرَّد الجانب[1].

بلاغةُ الكناية في تعبير ﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾:

مَـنْ سـنَّ سُنَّةَ سـوءٍ سيُلاقي وِزْرَهـا، وقد يعاقَب بمثلها

في التَّعبير ﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ كنايةٌ عَن السُّنَّة السَّيِّئة الَّتي سَنّها في حياته، فعمِلَ بها بعد موته. تقول العرب: أظهرتُ بفلان أي فعلتُ بعده ما يفعله هو[2]. ففي يوم القيامة يقال له: خُذه مِن وراء ظهرك أي مِن الموضع الَّذي نبذتَه فيه في حياتك الدُّنيا[3]، فعملتَ ما لم يأذن به الله، وظننت أنَّ عملك مِن ورائه ممّا يخفى عليه سبحانه، فكان حقيقًا بأن تُغلَّ يمينُك إلى عنقك، وتكونَ شمالُك إلى وراء ظهرك، ويوضعَ كتابُك فيها[4]، فتظهرَ بهيئة الكارِه المُكرَه الخَزيان مِن المواجهة[5].

قُبحُ الوجوه مِن آثار الذُّنوب الَّتي تسبّب البغض

وفيه أيضًا كنايةٌ عن هوانِ الكافر على ربّه بعدم الالتفات إليه[6]، وتحقيرِه وإذلاله، وإظهارِ الغضب عليه بحيثُ لا ينظُرُ مُناوِلُه كتابَه إلى وجهه[7]. لأنَّ مؤتي الكُتُب لا يتحمَّلون مشاهدة وجوههم لكمال بشاعتها، أو لغايةِ بُغضِهم إيّاهم، لنبذهم كتابَ الله تعالى وراء ظهورهم[8].

بلاغةُ الاحتباك في آيتَي إيتاء الكتاب:

السَّعيدُ مَحَلُّ رِفـقٍ ومَـودَّةٍ، والشَّـقيُّ محلُّ نبذٍ وإهانة

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ مِن الاحتباك، فذِكرُ اليمين أوَّلاً يدُلُّ

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 374، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 726، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 457، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 99، والنَّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 470.

(2) الكرمانيّ، غرائب التّفسير وعجائب التّأويل: 2/ 1322.

(3) الخلوتيّ، روح البيان: 10/ 378.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 343.

(5) رضا، تفسير المنار: 4/ 230.

(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 251.

(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 289.

(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 223.

على الشِّمال ثانيًا، وذِكرُ الوراء ثانيًا يدُلُّ على الأمام أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر دليلَ المَوَدَّة والرِّفق بالمصافحة ونحوها في السَّعيد، ودليلَ الغدر والاغتيال في الشَّقيِّ"[1].

نُكتةُ تكرار لفظ (الكتاب):

تغايرُ الكتابين وتخالُفُهما، بالاشتمال والحُكمِ في المآل

يُلاحظ تكريرُ لفظ ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ دونَ الاكتفاءِ بالإضمار بَعدَ ذِكرِه في الآية السّابقة ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، والنُّكتةُ في ذلك تغايرُ الكتابين، وتخالُفُهما بالاشتمال والحُكم في المآل؛ فشَتّان بين كتابٍ يوصِلُ صاحبَه إلى الجِنان والرِّضوان، وكتابٍ يُردي صاحبَه في النّيران وسخط الرَّحمن[2].

نوع الفاء ودلالتها في قوله ﴿فَسَوْفَ﴾:

أخذُ الكتاب وراء الظَّهر، مدعاةٌ للنَّدم والحَسَر

الفاء في قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ رابطةٌ لجملة جواب الشَّرط بجملة الشَّرط، وذلك لأنّ حرف (أمّا) مِن قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ متضمِّنٌ معنى الشَّرط؛ ولذا يقترن جوابه بالفاء للرّبط بين الفعل والجزاء، وتنبيهًا على حصول الثّاني بحصول الأوّل.

دلالة استعمال (سوف):

تحقّقُ النَّدامة، واستمرارُ الحسرة

الأصلُ في استعمال الحرف (سوف) الوارد في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ دلالتُه على حصول الفعل في المستقبل، والأكثرُ أن يُرادَ به المستقبلُ البعيدُ، وهذا هو الشّائع، ويُقصَدُ به في الاستعمالِ البليغِ تَحَقُّقُ حصولِ الفعلِ واستمرارُه، فهو هنا مفيدٌ للتَّحَقُّق والاستمرار بالنِّسبة إلى الفعل القابل للاستمرار وهو: ﴿يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾؛ إذ هو المقصودُ مِن هذا الوعيد[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 343.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 378.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 222.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿يَدْعُواْ﴾ مضارعًا:

في نداء الخائب تحسُّرٌ وتوجّعٌ

أوثر في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ استعمالُ لَفظ ﴿يَدْعُواْ﴾، والمقصود بالدُّعاء هنا النِّداء، أي: ينادي الثّبورَ بأن يقول: يا ثبوري، أو يا ثبورا، كما يقال: يا ويلي ويا ويلتنا. والنِّداءُ في مثل هذه الكلمات مستعملٌ في التَّحسُّر والتَّوجُّع مِن معنى الاسم الواقع بَعدَ حرف النِّداء[1].

دوامُ معاناة الكُفّار في النّار

وعُبِّرَ بالفعل ﴿يَدْعُواْ﴾ بصيغة المضارع دون غيرِه مِن الأزمنة لِما يُفيده المضارعُ مِنَ الثُّبوت والدَّوام والاستمرار، وفي ذلك دلالةٌ على استمرار الكُفّار في تَحَسُّرِهم بتَكرار مناداة الويل والثُّبور في جهنَّم كما أخبر عنهم اللّه سبحانه بقوله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾ [الفرقان: 13 - 14].

سِرُّ إيثارِ لَفظ ﴿ثُبُورًا﴾ دون (هلاكًا):

هلاكُ الآخرة ثبورٌ؛ لأنّه لازمٌ لا يزول

عُبّر في قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ بلفظ ﴿ثُبُورًا﴾، وهو الهلاك، والمعنى أنّه لَمّا أوتي كتابَه مِن غير يمينه عَلِم أنَّه مِن أهلِ النّار فيقول: (وا ثبوراه)، وقيل: الثُّبور مُشتَقٌّ مِن المُثابَرة على شيء، وهي المواظَبةُ عليه فسُمّي هلاك الآخرة ثبورًا؛ لأنَّه لازمٌ لا يزول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان: 65] وأصل الغرام اللّزومُ والوُلوعُ[2]. أمّا الهلاك فمصدرٌ دالٌّ على الحدث المجرّد مِن معنى الملازمة. وسُمّي المواظَأةُ على الشَّيء مثابرةً؛ لأنَّه كأنَّه يريد أن يُهلك نفسَه في طلبه[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 224.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 99.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 470.

بلاغةُ الكناية في قوله: ﴿يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾:

الـدُّعـاءُ بالثُّبور صفةُ المعَذَّبين في النّار

تضمَّنَ قولُه تعالى ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ فنًّا مِن فنون البيان مِن نَوع الكناية، فقوله ﴿يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ كنايةٌ عَن صفة دخول جهنَّمَ، ووجهُ ذلك أنَّ قولَ مَن أوتي كتابَه وراء ظهره: (يا ثبوراه) لازِمُه أنَّه مِن أهل النّار وأنَّه مُخَلَّدٌ فيها، ولا شَكَّ أنَّ هذا قولُ المخذولِ الكاره لِما عُرض عليه[1].

بلاغةُ المجاز في الآية:

تـمـنّـي الـكـفّـارِ الهلاكَ في جهنّم ولا يجدونه

حمَلَ بعضُ العلماء قَولَه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ على المجاز، ففَسّروا الدُّعاء بالتَّمنّي؛ إذ الخلود متيقَّنٌ لهم فالدُّعاء مستحيلٌ في الواقع، فيُحمل الدّعاءُ عَلَى التَّمنّي مَجازًا بجامع الطَّلَب، أو أنَّه استعارةٌ، ويجوزُ أن يكون مَجازًا مرسلًا؛ إذ الطَّلب يلزم الدّعاء، فيُرادُ به مطلقُ الطَّلب ثمَّ يُرادُ به طلبُ التَّمنّي؛ لكونه فردًا مِن مطلق الطَّلب أو مَجازًا بعلاقة الإطلاق والتَّقْييد[2].

وَجهُ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَيَصْلَىٰ﴾:

دَعا بالثُّبور؛ لأنّ عاقبتَه صَليٌ في الجحيم

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، فالكافرُ الّذي يُؤتى كتابَه وراء ظهره يدخلُ جهنَّمَ ويقاسي حَرَّها وعذابَها مِن غير حائلٍ، وهذا يدُلُّ على أنَّ دعاءهم بالثّبور قبل الصَّلي، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾ [الفرقان: 13 - 14]. فيدلُّ على أنّه بعده، ولا منافاة في الجمع، فإنّهم يدعونه أوَّلًا وآخرًا بل دائمًا على أنَّ الواو لمطلق الجمع لا للتّرتيب[3]. وتوجيهُ هذا العطف أنَّه لمّا كان الدُّعاءُ بالثُّبور

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 262.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 167.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 262.

لا يكون إلّا لبلاء كبير، أتبعه ما يمكن أن يكون عِلَّةً له وهو الصَّليُ في النّار[1].

دلالةُ التّعبير بصيغة المضارع (يصلى):

يـومُ القيامة هو اليومُ الموعودُ لحساب الخلائق

صيغَ الفِعلُ (يَصلى) في قوله تعالى: ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ مضارعًا؛ للدِّلالة على الاستقبال إذ مَحِلُّ مجازاة الكافر بصَلْي النّار يومُ القيامة، فهو اليومُ الموعودُ لحسابِ الخلائق، وهو نظيرُ قَولِه تعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾ [الانفطار: 15]. وفي المضارع أيضًا دلالةُ دَيمومةِ هذا الصَّلْي، واستمرارُه في جَهنَّم. ودوامُ العذاب عقابٌ أشدُّ، وجزاءٌ أنكى.

سِرُّ إيثار لفظة (يصلى) دون (يدخل):

الصّليُ مخصوصٌ بدخول النّار دون غيرها

أوثر الفعل (يصلى) في قوله تعالى: ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ دون ما يُقاربه كـ (يدخل) مثلًا؛ لكونه يختصّ بدخول النّار دون غيرها، وهذا لملاحظة مَلْمَح اشتقاقه مِن مادَّة (صلي)، وأصلها النّار وما أشبهَها مِن الحُمَّى، يُقال: صَلَيْتُ العودَ بالنّار، واصْطَلَيْتُ بالنّار، وصَلَيْتُ اللّحمَ، أي: شويته، وأصلاه النّارَ، وصلاه صَلْيًا أدخلَه إيّاها وأثواه فيها، فيَدلُّ على الدُّخول ومقاساة حَرِّ جهنّم وشِدَّته[2].

توجيهُ القراءات في ﴿وَيَصۡلَىٰ﴾:

مِن أهوال جهنّم شدّةُ العذاب ودوامُ العقاب

تَنَوَّعت القراءةُ في قوله تعالى ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾، فقرأ نافعٌ، وابنُ كثير، وابن عامر، والكسائيُّ بضَمِّ الياء وفتحِ الصّاد وتشديدِ اللّام ﴿وَيُصَلَّىٰ﴾، وقرأ الباقون بفتح الياء وإسكان الصّاد وتخفيف اللّام ﴿وَيَصۡلَىٰ﴾[3].

والحُجّةُ لِمَن شَدَّد اللّام أنَّه أراد دوام العذاب عليهم، مِن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلي)، وابن منظور، لسان العرب: (صلا).
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 399.

المضاعَف (صلّاه) إذا أحرَقَه. ودليله قوله: ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٖ ٩٤﴾ [الواقعة: 94] لأنَّ وزنَها: (تفعِلة)، و(تفعِلة) لا تأتي إلّا مصدرًا لـ(فعّل) بتشديد العين كقولك: عزّيته تعزيةً. والحُجّة لمن خفّف اللام أنّه أخذه مِن (صلي) اللّازم، بمعنى مَسَّته النّار. ودليله قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ١٦٣﴾ [الصافات: 163]، و﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾ [الانفطار: 15][1]. ولا يخفى ما في التّشديد من المبالغة في الصّلي فعلًا وديمومةً.

بلاغةُ استعمالِ مُفردة ﴿سَعِيرًا﴾:

تعدُّدُ أوصاف النّار بما يناسبُ السّياقَ مِن الوعيد

في قولِه تعالى ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ أوثر إطلاقُ لفظ السَّعير على النّار، ومعناه الالتهاب، وهو (فعيل) بمعنى (مفعول)، أي: مسعور، للدّلالة على زيادة الوقود في النّار، وهو معامَلٌ مُعاملة المُذَكَّر، لأنَّه مِن أحوال اللهب، كما في قولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا ٩٧﴾ [الإسراء: 97]. وقد يُطلَقُ عَلَمًا بالغلبة على جَهنَّم وذلك على حذف مضاف، أي: (ذاتُ سعير).

علّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ عن سابقه:

تعليلُ صَلي السَّعير في الآخرة بركوب المعاصي في الدّنيا

وَرَدَت الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ مفصولةً عَن الجملة قبلها ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ لأنَّ بينهما ما يُسَمَّى في البلاغة بـ(شبه كمال الاتّصال) وهو كونُ الجملة الثّانية قَويَّة الارتباط بالأولى؛ لوقوعها جوابًا عن سؤال يُفهم مِن الجملة الأولى، فتُفصل عنها كما يُفصل الجواب عن السّؤال[2]. وكأنَّ سائلًا يسأل: ما سببُ صلْيِه بالسَّعير، ونيلِه تلكَ العُقوبةَ؟ فجملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ تعليلٌ لجملة ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾؛ إذ علّل سبحانه ما يُلاقيه الكافر في الآخرة بأنّه كان في الدُّنيا مسرورًا

(1) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 224.
(2) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 180.

بركوب المعاصي والغفلة عن الآخرة[1]. أي لمّا ذكَرَ هذا العذاب الَّذي لا يُطاق، أتبَعَه سَبَبَه ترهيبًا منه واستعطافًا إلى التَّوبة وتحذيرًا مِن السُّرور في دار الحزن[2].

غَرَضُ جُملة التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾:

التّعجيبُ مِن انقلاب حال الكفّار

جاء الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ مُؤَكَّدًا بحرف التَّوكيد (إنّ)، والنُّكتةُ في تأكيده: التَّعجيبُ مِن حالِهم كيفَ انقلبت مِن ذلك السُّرور الّذي كان لهم في الحياة الدّنيا المعروف مِن أحوالهم بما حُكي في آيات كثيرة مثل قوله: ﴿أُوْلِى ٱلنَّعۡمَةِ﴾ [المزمل: 11]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١﴾ [المطفّفين: 31]؛ فآلوا إلى ألَم النّار في الآخرة حتّى دَعَوا بالثّبور[3]. والتَّنبيه على أنَّه لا ينبغي للعاقل التَّصديقُ بثبوت السُّرور ودوامِ الحبور في الدُّنيا[4].

دلالة ذِكرِ ﴿كَانَ﴾:

اتّصافُ الكافر بالرّكون إلى الحياة الدّنيا

ورَدَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ الفعلُ النّاقص ﴿كَانَ﴾، ويجوز أن يكون على بابه مِن الدِّلالة على اتِّصاف المُسند إليه بالمسند في الماضي، بمعنى أنَّ الكافر كان مسرورًا في حياته الدُّنيا[5]. ويجوزُ أن يكون دالًّا على الدَّوام حتَّى صار الوصف كالجبلّة له والطَّبع، فحالُ الكافر في الدّنيا أنّه بطِرٌ بماله وجاهِهِ فارغٌ عن الآخرة[6].

بلاغة استعمال حرف الظَّرفيَّة:

يدُلُّ حَرفُ ﴿فِىٓ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ على الظَّرفيَّة المكانيَّة، أي (فيما بين أهله وعشيرته أو معهم)،

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 104.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 224.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 263.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 168.

كما يقال: (جاءني فلانٌ في جماعة)، أي: معهم. وفيه إيماءٌ إلى الاستغراق في الملذّات معهم، منغمسًا فيها بينهم.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الأهل مضافًا إلى الضَّمير:

اشتغال الكفّار بالدّنيا عن الآخرة أوردَهم المَهالك

الإضافة في قوله تعالى: ﴿أَهۡلِهِۦ﴾ على معنى اللّام، وهي مفيدةٌ للاختصاص، بمعنى أنَّهم جميعًا كانوا مسرورين لا يفكِّرون في أمور الآخرة، ويُقدِمون على المعاصي ظَنًّا منهم أنَّ لذّاتها لا توجب الحسرة، ولا تورث التَّردّي في النّار[1]. وقد يُراد بتعبير ﴿فِيٓ أَهۡلِهِۦ﴾ الكنايةُ عن دار العمل[2].

غَرَضُ تقديم ﴿فِيٓ أَهۡلِهِۦ﴾ على ﴿مَسۡرُورٗا﴾:

شتّانَ بين مَن يلقى الصَّحيفةَ مسرورًا، ومَن يلقاها مثبورًا

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ قُدِّمَ شِبهُ الجُملة ﴿فِيٓ أَهۡلِهِۦ﴾ على الخبر ﴿مَسۡرُورًا﴾ لِنُكتَة الموازنة بين مصير المؤمن ومصير الكافر، إذ لمّا ذَكَر النَّظمُ أنَّ المؤمن ينقلب إلى أهله في المحشر مسرورًا بصحيفة أعماله ذَكَر هنا أنَّ الكافر يُلاقي السَّعيرَ بعد أن كان في الدُّنيا في أهله مسرورًا، فضلًا عمّا في تأخير ﴿مَسۡرُورًا﴾ مِن مراعاة الفواصل[3].

بلاغةُ التَّعريض في الآية:

لا يُجمع على العبد في الآخرة خوفان ولا أمنان

تُظهرُ هذه الآيةُ البونَ البعيدَ بين حال المؤمن وحال الكافر، فالكافرُ كان في أهلِه مسرورًا أي مُنَعَّمًا مستريحًا مِن التَّعب بأداء العبادات واحتمالِ مَشقَّة الفرائض مِن الصّلاة والصّوم والجهاد، مُقْدِمًا على المعاصي، محفوفًا بشهواته، آمنًا مِن الحساب والثَّواب والعقاب، لا يخافُ اللّه ولا يرجوه، فأبدَله اللّه بذلك السُّرور الفاني غمًّا باقيًا لا ينقطع، وكان المؤمنُ الّذي أوتي كتابَه بيمينه متَّقيًا مِن

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 263.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344.
(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 168.

المعاصي غير آمن مِن العذاب ولم يكن في دنياه مسرورًا في أهله فجعله الله في الآخرة مسرورًا فأبدله الله تعالى بالغمِّ الفاني سرورًا دائمًا لا ينفد[1].

بلاغة الاحتباك في الآية:

حُفّت الجَنَّة بالمكاره، وحُفَّت النّار بالشَّهوات

الكلام في هذه الآية وسابقاتها مِن الاحتباك؛ فذِكرُ الحساب اليسير الَّذي هو الثَّمرة والمُسبَّب أوَّلًا يدُلُّ على حذف ضِدِّه ثانيًا، وذِكرُ السُّرور في الأهل الَّذي هو السَّبب في الثّاني يدُلُّ على حذف ضِدِّه في الأوّل، وهو المشقَّة الدُّنيويّة ومحاسبةُ النَّفس، المؤدّيان إلى السّعادة الأبديَّة[2].

عِلَّةُ فصلِ قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾:

صَـلِيَ الكـافِـرِ السّعـيرَ بظَنِّه عَدَم الرُّجوع إلى رَبِّه

فُصلت جملة ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ عَن الجملة قبلها لأنّها وقعت موقع التّعليل لمضمون جملة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾، فالمعنى: يصلى سعيرًا لأنَّه ظَنَّ أنَّه لَن يَرجع إلى الحياة بعد الموت، فهو يُكَذِّبُ بالبعث. وحرف (إنّ) في مِثل هذا النّوع مِن الجُمل مغنٍ عن فاء التّعليل، قال عبد القاهر: "حتَّى إذا جئتَ إلى (إنَّ) فأسقطتَها، رأيتَ الثّاني منهما قد نَبا عن الأول، وتجافى معناه عن معناه، ورأيْتَه لا يتَّصلُ به ولا يكونُ منه بسبيلٍ، حتَّى تجيءَ (بالفاءِ)... ثم لا ترى (الفاء) تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه مِنَ الأُلفة، ولا تردُّ عليك الّذي كنت تجد بـ (إنَّ) مِن المعنى"[3].

بلاغةُ التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾:

التّعجيبُ مِن ظنّ الكافر عدمَ الرّجوع إلى ربّه

جاء الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ مُؤَكَّدًا بحرف التَّوكيد (إنّ)، والنُّكتةُ في تأكيده التَّعجيبُ مِن حال الكافر الّذي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344 - 345.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 316، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 224.

ظَنَّ أن لن يرجع إلى ربّه، وأنّه لن يبعثَ الخلقَ لحسابهم على ما قدّموا، ولو عَلِم أنَّ الله يُبدِلُ سرورَه حزنًا وغمًّا لأقلع عمّا هو فيه، ولَتَرك هذا السّرورَ العاجل السَّريعَ الفناء، وطَلَب مِن السّرور ما يبقى ما بقيت الجنّة الّتي لا يَفنى نعيمُها، ولا يزولُ سرورُ أهلِها[1]. وفي التَّوكيد أيضًا تعليلٌ لثبات السُّرور، وتنبيهٌ على أنَّه لا يُصدَّقُ أنَّ أحَدًا يُنكر البعث مع ما له مِن الدَّلائل الَّتي تفوتُ الحصر[2].

نُكتةُ استعمال فعل الظَّنِّ ماضيًا:

بُطلانُ حُسبان الكفّار بعدم البعث والنُّشور

عُبّر بفِعل الظَّنِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ الدّالِّ في أصل اللُّغة على معنَيَيْنِ مُختلِفَين: يقينٍ وشَكٍّ[3]. وحَمَله بعضُهم في هذه الآية على اليقين، أي إنَّ الكفّار أيقنوا بعدم البعث كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: 38]، والرّاجحُ حَملُه على بابه من الحُسبان، فالكفّار المتّبعون لشهواتهم، السّاعون وراء لذّاتهم، ليسوا بظانّين فضلًا عن أن يكونوا مستيقنين بأنّهم يرجعون إلى ربِّهم ليحاسبهم، بل الرّاجحُ عندهم: أنّهم لا يحاسبون، وأنّ الله سبحانه مُخلِفٌ وعدَه، وهذا هو الّذي يُنسيهم ذِكرَ الحساب والجزاء عِند كُلِّ جُرمٍ يُجرِمونه[4].

وعُبِّر بصيغة الماضي ﴿ظَنَّ﴾ دونَ غَيرِه مِن الأزمنة للدِّلالة على الحال السّابقة للكافر الّذي يُؤتى كتابَه بشماله، وهي ظَنُّه في الدّنيا بأنَّه لن يرجع إلى رَبِّه بالبعث، فالإخبار عن الشّيء بصيغة الماضي يقتضي كونَ المخبَرِ عنه متقدِّمًا على ذلك الإخبار[5].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 264.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344 - 345.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظن).
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 264.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

نوع ﴿أَن﴾ ودلالتها:

إنـكـارُ البعث شـأنُ الكافر مهما عَظُمتِ الدّلائل

حرف ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ هي المؤكّدةُ المخفَّفةُ مِن الثّقيلة، السّادَّة مع ما في حيِّزها مَسدَّ مفعولي ﴿ظَنَّ﴾ أو أحدهما على الخلاف المشهور؛ أي: ظنّ الكافر أنّ الشّأن والحال عدمُ رجوعه إلى ربّه للحساب والجزاء.

دلالةُ النَّفي بأداة ﴿لَّن﴾:

تأكيدُ النَّفي في المستقبل

عُبِّرَ بحرف ﴿لَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ في سياق حكاية جزم الكافر بعدم البعث والحساب، وقَطْعِه بنَفيِه؛ لأنّ حرف ﴿لَّن﴾ موضوعٌ لِنفي المستقبل، والنّفيُ به آكدُ من النّفي بـ(لا)[1].

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿يَحُورَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الـظـنُّ بعدم الرّجوع قصورٌ فـي الـعـقـل والتّفكير

لفظ ﴿يَحُورَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ من الحَوْر، وهو الرّجوع، والمَحار: المرجع والمصير؛ وهو رجوعٌ مخصوصٌ لِكونِه عودٌ إلى خلاف ما كان عليه المرءُ. وعليه فالمعنى: إنَّه ظنَّ أن لن يرجعَ إلى الآخرة أي لن يُبعث، وحَسِب أن لا يرجع إلى الله تعالى، أو ظنَّ أن لن يرجع إلى خلاف ما هو عليه في الدُّنيا مِن السُّرور والتَّنَعُّم[2].

نُـكـرانُ المآل إلى الله تعالى ضلالٌ

وصيغَ الفعل ﴿يَحُورَ﴾ مضارعًا للدّلالة على الاستقبال بدلالة زمن الفعل، وقرينة دخول حرف ﴿لَّن﴾ الموضوع لنفي المستقبل، مع عدم إغفال معنى التَّجَدُّد والاستمرار في الفعل الدّالِّ على دوام الظَّنِّ بعدم الرُّجوع مُستقبلًا إلى الله تعالى أو إلى خلاف ما هو عليه في الدُّنيا مِن السُّرور والتَّنعُّم. وهو مِن تمام الضَّلال، وخُسران الحال.

فائدة استعمال حرف الجواب ﴿بَلَىٰٓ﴾:

﴿بَلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ حرفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 01/ 342.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 242، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100.

جواب، وموقعُه الاستئنافُ، ويُجاب به الكلامُ المنفيُّ لإبطال نفيه. ومعناه في هذه الآية: (بلى ليُبعثَنَّ، وإنّ الله تعالى يُبدلُ سرورَه بغمٍّ لا ينقطع، وتنعُّمَه ببلاءٍ لا ينتهي ولا يزول)[1].

ظنُّ الكافر بعدم البعث باطلٌ وتنعُّمُه بالملذّات زائلٌ

علّة فصل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ﴾:

فُصلت جملة: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ عن الآية قبلها لوقوعها جوابَ قَسَمٍ مُقَدَّرٍ، والتَّقديرُ: (بلى لَيَحورَنَّ ولَيَرجِعَنَّ إلى رَبِّه حَيًّا كما كان قبل مماته)، أو لوقوعها موقع التَّعليل لِما أفادته ﴿بَلَىٰٓ﴾ مِن إيجابٍ لِما بعدَ ﴿لَّن﴾، والجُملةُ مبيِّنةٌ للإبطال الَّذي أفاده حرف ﴿بَلَىٰٓ﴾ على وجه الإجمال يعني أنّ ظنّه باطلٌ لأنّ ربّه أنبأه بأنّه يُبعث[2]. وحرف ﴿إِنَّ﴾ في مثل هذا النّوع من الجُمل مغنٍ عن فاء التّعليل وفاق ما بَيَّنّا مِن قبل في تفسير قوله ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾.

تعليلُ إبطال ظنّ الكافر بعدم البعث

بلاغة التَّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾:

جاء الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ مُؤكَّدًا بحرف التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، لردّ إنكار الكافر البعثَ الّذي أخبَرَ الله به على لسان رسوله ﷺ، والمعنى: (إنَّ رَبَّه عليمٌ بمآله). فآل المعنى الحاصل مِن حرف الإبطال ومِن حرف التّأكيد إلى بيان أنّ رَبَّه بصيرٌ به عليمٌ بحاله، وأمّا هو فغَيرُ بصيرٍ بحاله كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: 216][3].

مَن لا يُبصِر ما حالُه؛ يَتردَّى مآلُه

براعةُ ذِكر عُنوان الرُّبوبيَّة:

عُبِّرَ بلَفظِ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ دون سواه مِن أسماء الله وصفاته لِنُكتَةِ التَّذكيرِ بإنعام الرَّبِّ سبحانه على عباده أجمعين مؤمنِهم وكافِرِهم، وتقريعِ الكافر على كفره

إنعامُ الرَّبِّ سبحانه على عباده يشمَلُهم جميعًا مؤمنَهم وكافرَهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 225.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 243، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 423.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 225.

بخالِقه ورازقه، وإنكارِه قضاءَه بالبعث والحساب، فالرَّبُّ سبحانه هو مَن أوجد الكافر ورَبّاه وأمَدَّه بمختلف النِّعم وسخَّرَ له الآياتِ الكونيَّةَ لمنفعته، وفي وصف الرُّبوبيَّة أيضًا الدِّلالة على الشَّفقة بالمربوب، ومحبَّة الخير له، فهو رَبُّ العباد الّذي له الخَلقُ والأمر[1].

دلالة ذكر ﴿كَانَ﴾:

صـفـاتُ اللـه سبحانه دائمةٌ مطلَقةٌ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ استُعمل الفعل الماضي ﴿كَانَ﴾ الّذي يأتي في الأصل للاتّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غير أنّه يُستعمل لدلالة الدّوام والاستمرار بمعنى (لم يزل)، فتختصُّ كان بمرادفة (لم يزل) كثيرًا، أي إنّها تأتي دالَّةً على الدّوام[2]، وفائدتها هنا الإشعار بأنَّ اتّصافه تعالى بهذا الوصف دائمٌ ثابتٌ في الأزل، وهذا المناسب لصفات الله سبحانه فهي دائمةٌ مُطلَقةٌ.

نوع الباء ودلالتها في القيد ﴿بِهِۦ﴾:

عِـلـمُ الـرَّبِّ سبحانه ملابسٌ لأحوال عباده

حرف الباء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ معناه المُلابَسة أو الإلصاق، وقد تعدّى الوصف ﴿بَصِيرًا﴾ بالباء؛ لأنّه من (بَصُر) القاصر بضمّ الصّاد، بمعنى: رآه رؤيةً مُحَقَّقةً. وقد عُلِّقَ وصف (بصير) بضمير الإنسان الّذي ظَنَّ أنْ لن يحور، والمراد: العلم بأحواله لا بذاته[3].

غرض تقديم القيد ﴿بِهِۦ﴾ على الخبر ﴿بَصِيرًا﴾:

لا تَـخـفـى على الله تعالى من أعـمـال العباد خافيةٌ

قُدِّم شِبهُ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ على الخبر ﴿بَصِيرًا﴾ لِنُكتة الاهتمام بأعمال الكافر الموجبة للجزاء، بحيثُ لا يخفى عليه منها خافيةٌ، فلا بدّ مِن رَجعِه وحسابِه وجزائِه عليها حَتمًا؛ إذ لا يجوز في حكمته أن يُهمِله فلا يُعاقبُه على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 425، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 04/ 202.
(2) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 226.

سوء أعماله، وهذا زجرٌ لجميع المكلَّفين عن المعاصي كُلِّها[1]؛ مع ما في هذا التّقديم من مراعاة الفواصل.

نُكتةُ المبالغة في الوصف ﴿بَصِيرًا﴾:

جاء الوصف ﴿بَصِيرًا﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ على صيغة (فعيل)، وهي مِن أوزان المبالغة، للدّلالة على كمال الصّفة في الموصوف بها سبحانه، وعظيم أثرها على عباده، وقد خَتمَ اللّه سبحانه هذه الآية بهذه الصّفة الدّالَّة على المُبصَرات؛ لأنَّ أعمال الكافر مشاهدَةٌ مَرئيَّةٌ، فناسب ذلك المجيءُ بالصّفة المتعلّقة بالمُبصَرات، فاللّه سبحانه بصيرٌ بأعمال الكافر؛ مِن معاصيه في الدُّنيا، وما إليه يصير أمرُه في الآخرة، فهو العالِمُ وحدَه بذلك كُلِّه[2].

الله تعالى وحدَه العالِمُ بأحوال مَن جَحَده

بلاغةُ المقابلة بين مصير المؤمن والكافر:

تضمّنت هذه الآياتُ فنًّا مِن فنون البديع، وهو المقابلة؛ إذ قابل النَّظمُ الكريم بين أحوالِ أهل السَّعادة الّذين يُؤتَون كتابَهم باليمين وبينَ أحوالِ أهلِ الشَّقاوة الّذين يُؤتون كتابَهم بالشِّمال وراء ظهورهم، فبينَ مصيرِ الفريقَين تضادٌّ يُثيرُ الذِّهنَ ويَجذِبُ الانتباه، ويزيد الكلامَ حُسنًا وطرافةً، كما يقوّي المعنى؛ إذ بضِدِّها تتمايزُ الأشياء[3].

بالضِّدِّ تتمايزُ الأشياء

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّعاء والنِّداء:

يتجلّى الفرق بين لفظَيِ: (الدُّعاء)، و(النّداء) في خصوص (النّداء) برفع الصَّوت بما له معنًى، والعربيُّ يقول لصاحبه: (نادِ معي ليكون ذلك أندى لصوتنا)، أي: أبعد له، فالنِّداء يكون برفع الصَّوت. ولذلك ذكرَ القرآنُ مع النّداء وصف ﴿خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: 3]

مشهدُ القضاء بالعذاب يُفقِدُ المرءَ تماسكَه

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 264.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 243، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 541.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 365.

تقييدًا له، قال الله ﷻ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: 3]. أمّا (الدُّعاء) فلا يُشترط فيه رفعُ الصَّوت، بل يكون برفع الصَّوت وخَفضِه، يقال: دعوتُه مِن بعيدٍ ودعوتُ الله في نفسي، ولا يقال: ناديته في نفسي، وأصل الدُّعاء الطَّلبُ؛ والدّعوى مطالبةُ الرَّجل بمالٍ يدعو إلى أن يُعطاه[1]. ومِن هنا أوثرَ الفعلُ (يدعو) وكأنَّ الكافر هو من يطلب ثبورًا، وقد حُمل الدّعاء عَلَى التَّمنّي مَجازًا بجامع الطَّلَب بحسب ما مرّ بيانه، ثمّ إن مشهد إيتاء الكتاب وراء الظَّهر وبالشِّمال مشهدُ انهيارٍ ترتَعِدُ فيه الفرائصُ، فلا تكاد تقوى على النِّداء بصوتٍ مرتفعٍ.

الحَوْرُ والرُّجوع:

الحَوْرُ الرّجوعُ إلى خلاف ما كان عليه المرءُ

يتجلّى الفرق بين لفظي (الحَوْر) و(الرّجوع) في علاقة العُموم والخُصوص بينهما، فالرّجوع عامٌّ في مطلق العَوْد، ويختصّ (الحَوْر) بالرّجوع إلى خلاف ما كان عليه المَرءُ[2]، كما في الحديث: «اللّهُم إنّي أعوذ بك من الحَوْرِ بَعدَ الكَوْرِ»[3]، يعني بذلك: مِن الرّجوع إلى الكفر بعد الإيمان، أو مِن التَّردّد في الأمر بعد المضيّ فيه، أو مِن نُقصانٍ وتردّدٍ في الحال بعد الزيادة فيها[4].

واختير تعبير ﴿لَّن يَحُورَ﴾؛ لأنّ الكافر حَسِبَ أنّه لن يرجع إلى الآخرة أو أنّه ظنّ أنّه لن يرجع إلى خلاف ما هو عليه في الدّنيا مِن السّرور والتّنعّم.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 38.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 242، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100.
(3) أخرجه مسلم: (1343).
(4) الرّاغب، المفردات: (حور).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66 : المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-45-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"